

[](http://www.alukah.net/)

**القول اللين**

**كما طبقه موسى عليه السلام**

**نايف بن علي القفاري**

**محرم 1436هــ**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لابني بعده، وبعد:

فكثيراً ما يشتد النكير على من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، ويُحتج عليه بإرشاد الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام حين بعثه إلى فرعون: (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى).

فما هو القول اللين؟ وكيف امتثله موسى عليه السلام؟

وهل القول اللين مرادف للقول الخاضع الناشئ عن التذلل والتطامن؟ أو بينهما برزخ لا يبغيان؟

هذا ما أردت الوصول إلى جوابه، والله أسأل أن يهديني للحق بإذنه وأن ينفعني به وقارئه الكريم.

**أولاً: القول اللين لغوياً:**

اللين في اللغة: ضد الخشونة، وهو من صفات الأجسام حقيقة: وهو رطوبة ملمس الجسم وسهولة ليّه ومنه قوله تعالى: (ما قطعتم من لينة) أي نخلة ناعمة.

ويستعار اللين لغير الأجسام كالخُلِق والجوارح وغير ذلك، ومنه يَصِفُ رغد عيشه فيقول: فلان عَيْشه لين، ويصف خُلقه فيقول: فلان لين الطبع، ومن ذلك قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم (فبما رحمة من الله لنت لهم) [آل عمران/ 159]، ومنه ما جاء في أثر الذكر على القلوب: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين، الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فذكر أن قلوباً تقسو بذكر الله، وآخرى تلين هي والجلود بالذكر تأثراً به([[1]](#footnote-1)).

ويفسر اللين بالرفق، وكذا يفسر الرفق باللين، ومما قيل في تعريف الرفق: لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف. وقيل: إن اللين أعم من الرفق([[2]](#footnote-2)).

قال القرطبي: (القول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه)([[3]](#footnote-3)).

وعرف الطاهر بن عاشور القول اللين، بأنه: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله([[4]](#footnote-4)). وسنرى هل هذه القيود التي ذكرها الإمام الطاهر بن عاشور امتثلها موسى عليه السلام في قوله اللين مع فرعون أم لا.

**ثانياً: مفهوم القول اللين في كتب التفسير:**

لا تخرج أقوال المفسرين عمّا يلي:

1-المراد به كلام معين يقوله موسى عليه السلام لفرعون، فقيل إنه: قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وقيل أن يقول له: إِنِّ لكَ ربّاً، وإِنِّ لك معاداً، وإِنِّ بين يديكَ جَنَّة وناراً.

2-المراد به وَعْدٌ يعده موسى عليه السلام لفرعون إنْ هو آمن، فقيل: إنِّ موسى أتاه، فقال له: تؤمن بما جئتُ به وتعبد ربَّ العالمين، على أنَّ لكَ شبابك فلا تهرم، وتكون مَلِكاً لا يُنزع منك حتى تموت.

3-المراد به أسلوب الخطاب. ثم جملة ممن رأى هذا قال إنّ هذا القول اللين مبين في القرآن، وأكثر من وقفت عليه أحال في القول اللين على ما في سورة النازعات (هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى)([[5]](#footnote-5))، وأضاف بعضهم ما في سياق الآيات في سورة طه([[6]](#footnote-6)).

وقال بعضهم: القول اللين: هو التكنية، بأن يكني موسى عليه السلام فرعون عند خطابه؛ لكن المخاطبة بالكنية أمر سهل فلا يجوز حصر اللين بالتكنية، بل أحد أفراد اللين في الخطاب([[7]](#footnote-7))، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكني الكافرين والمنافقين، كما فعله مع صفوان بن أمية، وعبدالله بن أبي سلول([[8]](#footnote-8)).

وقال بعضهم: هو مناداته بلقب الملك "فرعون" كما هو عادتهم؛ لأن لقب محبب إليهم مما سواه من الألقاب([[9]](#footnote-9)).

وقال بعضهم: تحسين الكلمة بحيث يتجنب العنف والغلظة ويلطف في القول([[10]](#footnote-10)).

وقال بعضهم: البدء بالترغيب قبل الترهيب([[11]](#footnote-11))([[12]](#footnote-12))، لكن ظاهر السياق القرآني أن موسى عليه السلام بدأ بهما معاً، فتضمن قوله تهديداً مبطناً وآخر صريحاً كما سيأتي.

هذه خلاصة الأقوال. ولعل أسعد الأقوال بظاهر القرآن هو الأخير في الجملة، وأما القولان الأولان فيحتاجان إلى نقل صحيح.

لكن ما حدود هذا الأسلوب؟ هذا ما سيأتي بيانه-بإذن الله تعالى- في ثالثاً.

**ثالثاً: معالم القول اللين من سياق القرآن:**

ساق الله لنا قصة المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون في عدد من سور القرآن بعضها بإيجاز، وبعضها بشيء من بسط، وسأقتصر هنا على إيراد ما يفيد في تحديد معالم القول اللين.. فلنورد نصوص القرآن:

1-سياقها في سورة الأعراف: (وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين \* حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل \* قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين \* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين \* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) [الأعراف 104-107].

2-سياقها في سورة يونس: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين \* فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين \* قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون \* قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين \* وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) [يونس:76-79]

3- سياقها في سورة الإسراء: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورًا \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا) [الإسراء 101-102].

4-سياقها في سورة طه: (اذهبا إلى فرعون إنه طغى \* فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى \*

فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى \* إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى \* قال: فمن ربكما يا موسى \* قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى \* قال: فما بال القرون الأولى \* قال: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى \* كلوا وارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى \* منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى \* ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى \* قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى \* فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى)[طه 43-58].

5-سياقها في سورة الشعراء: (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين \* أن أرسل معنا بني إسرائيل \* قال: ألم نربك فينا وليدًا ولبثت فينا من عمرك سنين \* وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين \* قال: فعلتها إذا وأنا من الضالين \* ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين \* وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل \* قال فرعون: وما رب العالمين \* قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين \* قال: لمن حوله ألا تستمعون \* قال: ربكم ورب آبائكم الأولين \* قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون \* قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون \* قال: لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين \* قال: أولو جئتك بشيء مبين \* قال: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) [الشعراء 16-

6-سياقها في سورة القصص: (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات، قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين \* وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون \* وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين) [القصص 36-38]

7-سياقها في سورة غافر: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين \* إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب \* فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال \* وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد \* وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) [غافر 23-27]

8-سياقها في سورة الزخرف: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين) [الزخرف46]

8-سياقها في سورة الدخان: (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم، أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين، وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين، وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون، فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) [الدخان 17-22]

9-سياقها في سورة النازعات: (اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى) [النازعات17-19]

هذه سياقاتها وهي أقوال صدرت من نبي الله موسى وإمام الطغاة فرعون في مقامات المحاورة بينهما، فحكى الله لنا في كل مقام من مقامات المحاورة شيئاً مما دار بينهما([[13]](#footnote-13))، ونلحظ أن موسى يتغير خطابه بحسب المقام، ففي أول لقاء به كان له نفس في خطابه لفرعون، وفي آخر الأمر تغير نَفَسُ الخطاب..

ومن مجموع السياقات نخرج بما يلي:

**معالم القول اللين في اللقاءات الأولى:**

**أولاً:** موسى عليه السلام خاطب المدعو بلقب مثله، فناداه بلقب ملوك مصر "يا فرعون"، وكل من ملك مصر كان يلقب بفرعون، كما أن من ملك الفرس يلقب بكسرى، والشام قيصر، والحبشة النجاشي، واليمن تبعاً([[14]](#footnote-14)). ولكل بلد وعصر ألقابه، فعندنا يلقب الوزراء ومن في رتبتهم بــ"معالي"، والقضاة وأضرابهم بـــــ"فضيلة". قال ابن عاشور: (والظاهر أن خطاب موسى فرعون بقوله: "يا فرعون" خطاب إكرام لأنه ناداه بالاسم الدال بحسب متعارف أمته، فليس هو بترفع عليه؛ لأن الله تعالى قال له ولهارون (فقولا له قولاً ليناً) [طه: 44]، والظاهر أيضاً أن قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون كما دلت عليه سورة طه)([[15]](#footnote-15)).

**ثانياً:** فيما يتعلق بدعوة فرعون فيما ثمرته عائدة في الدرجة الأولى على فرعون خاصة، **تميز خطاب موسى بما يلي**:

أ-أمر الله تعالى موسى بأن يجمع في خطابه لفرعون بين الترغيب والترهيب في آن واحد (لعله يتذكر أو يخشى) قال الشوكاني: (التذكير: النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية هي خشية عقاب الله **الموعود به على لسانهما**)([[16]](#footnote-16)).

ويظهر الترغيب في خطاب موسى في قوله تعالى: (والسلام على من اتبع الهدى) فهو وعد ضمني لفرعون بأنه إن اتبع الهدى حصلت له السلامة.

ويظهر الترهيب في خطابه في موضعين:

الموضع الأول: ترهيب صريح، وهو قوله تعالى: (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى).

والموضع الثاني: ترهيب غير صريح، وهو قوله تعالى: (والسلام على من اتبع الهدى).

يقول الطاهر ابن عاشور: (والسلام: السلامة والإكرام. وليس المراد به هنا التحية، إذ ليس ثم معين يقصد بالتحية. ولا يراد تحية فرعون لأنها إنما تكون في ابتداء المواجهة لا في أثناء الكلام..، و(على) للتمكن، أي: سلامة من اتبع الهدى ثابتةٌ لهم دون ريب. وهذا احتراس ومقدمة للإنذار الذي في قوله: (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى)، فقوله: (والسلام على من اتبع الهدى) تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذي جاء به موسى- عليه السلام-.

وقوله: (إنا قد أوحي إلينا) تعريض لإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه؛ ليبلغ الرسالة على أتم وجه قبل ظهور رأي فرعون في ذلك؛ حتى لا يجابهه بعد ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه. وهذا من أسلوب القول اللين الذي أمرهما الله به.

وإطلاق السلام والعذاب دون تقييد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشارة والنذارة، قال تعالى في سورة النازعات (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى). وهذا كله كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون)([[17]](#footnote-17)).

ب-استخدم أسلوب العرض والمشورة في إيصال المضمون (هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى)، قال ابن حيان: (وهذا من لطيف الكلام؛ إذ أبرز ذلك في صورة الاستفهام والمشورة والعرض؛ لما فيه من الفوز العظيم)([[18]](#footnote-18))([[19]](#footnote-19)). ولا حظ أن هذا الأسلوب استخدمه في دعوة فرعون لنفع نفسه بالإيمان، وأما أسلوبه عليه السلام في المطالبة بكشف المظالم عن بني إسرائيل فسيأتي بيانه بإذن الله.

ج-التكذيب الضمني لدعاوى فرعون الفارغة: (إني رسول من رب العالمين) (إنّا رسول رب العالمين) (إني رسول رب العالمين) (إني لكم رسول أمين) وأصرح الآيات: (إنا رسولا ربك)، ففي هذا تكذيب ضمني لما كان يزعمه فرعون ويُعلّمه قومه من أنه الرب الأعلى، فاختيار موسى عليه السلام صفة "رب العالمين" (في الإعلام بالمُرْسِل؛ إبطالٌ لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها فإنه قال لهم: (أنا ربكم الأعلى) [النازعات:24]، فلما وصف موسى مُرْسِله بأنه "رب العالمين" شمل فرعون وأهل مملكته، فتبطل دعوى فرعون أنه إلاه مصر بطريق اللزوم، ودخل في ذلك جميع البلاد والعباد الذين لم يكن فرعون يدعي أنه إلههم مثل الفرس والآشوريين)([[20]](#footnote-20)).

د-التنقص الضمني لفرعون بسبب إنكاره الواضحات: ويظهر ذلك في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون التي قصها الله علينا في سورة الشعراء (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)، وفي قوله "إن كنتم تعقلون" (تلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل)([[21]](#footnote-21))؛ لأن ما ذكره موسى عليه السلام من الوضوح بمكان بحيث لا يظن أنه يلتبس على ذي عقل.

ه-المخاشنة في الأسلوب إذْ خاشن فرعون: وهذا مستفاد من المحاورة التي قصها الله علينا في سورة الشعراء.

فأول الأمر سئل فرعون بهدوء (قال فرعون: وما رب العالمين؟) فأجاب موسى عليه السلام بهدوء أيضاً: (قال: رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين!)

فاستهزأ فرعون وتهكم (قال: لمن حوله ألا تستمعون؟!) فلم يعبأ موسى عليه السلام بتهكمه واسترسل في بيان "رب العالمين" بتهكم ضمني بدرجة تهكم فرعون (قال: ربكم ورب آبائكم الأولين!) فتهكم موسى عليه السلام ضمناً بدعوى فرعون الربوبية، بأن الرب الذي أرسل موسى هو ربك يا فرعون ورب الحاضرين ورب آبائكم الأولين أيضاً.

فتمادى فرعون فخاشن موسى عليه السلام واتهمه بالجنون (قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون!)

فلم يستكن موسى عليه السلام أو يخضع لأجل الحجج التي تردد وتنزل في غير محالّها (تأليف القلب/رعاية مصلحة الدعوة)؛ بل خاشنه عليه السلام وهو مستمر في بيان "رب العالمين" (قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون!) فلوح لهم موسى عليه السلام بأن فرعون ومن معه (بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون)([[22]](#footnote-22)).

قال الزمخشري يعني موسى عليه السلام (فإن قلت: كيف قال أوّلاً "إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ" وآخراً: "إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟" قلت: لاين أوّلاً([[23]](#footnote-23))، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: "إنّ رسولكم لمجنون"، بقوله: "إن كنتم تعقلون")([[24]](#footnote-24)) وفي الحقيقة فإن الملاينة من موسى تشمل الحالين أولاً "إن كنتم موقنين" وثانياً "إن كنتم تعقلون" فالقول اللين لا يعني القول الساكن المتطامن؛ بل الذي يجمع بين الترغيب والترهيب ويهدأ في موطن الهدوء ويشتد في موطن الشدة كما مرَّ. قال الطاهر بن عاشور: (لما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول، وعارض قول فرعون "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون"، فقال: "إن كنتم تعقلون" أي: إن كنتم أنتم العقلاء، أي: فلا تكونوا أنتم المجانين، وهذا كقول أبي تمام للذين قالا له: (لم تقول ما لا يفهم) قال: (لم لا تفهمان ما يقال))([[25]](#footnote-25)).

وإذا تأملت فإن لفظ موسى عليه السلام "إن كنتم تعقلون" أشد خشونة من لفظ فرعون "لمجنون"، ووجهه ما يلي:

1-أن المجنون له عقل وإدراك لكنه غير تام، وهذا الإدراك يتفاوت من مجنون إلى آخر.

2-من الجنون ما يكون غير مطبق فيفيق في بعض الأحوال كالصحيح.

وحينئذٍ فالمجنون أحسن حالاً من الذي لا عقل له رأساً، وليس لديه إدراك لا تام ولا ناقص.

**ثالثاً:** فيما يتعلق برفع المظالم عن بني إسرائيل، **تميز خطاب موسى عليه السلام بما يلي**:

أ-وضوح اللغة، وخروجها مخرج الطلب باستعلاء من غير تذلل ولا تزلف (فأرسل معي بني إسرائيل)، (فأرسل معنا بني إسرائيل) فلم يستجده حقوق بني اسرائيل، أو يدعه إلى دفع حقوقهم كمكرمة تخرج من ملك لرعيته. فرحم الله عمر بن عبد العزيز إذ قال: "إنما هلك من كان قبلنا بحبسهم الحق حتى يُشْترى منهم، وبسطهم الظلم حتى يُفْتدى منهم"([[26]](#footnote-26)).

ب-الصراحة في وصف الظلم الواقع على بني إسرائيل بأنه "عذاب" من غير مداهنة ولا تلطيف للوصف، فأمر الله موسى عليه السلام بأن يقول لفرعون: (فأرسل معنا بني إسرائيل "ولا تعذبهم")، هكذا جهر "بالتعذيب" ولم يستخدم بدائل هذا المصطلح مما هو أخف في أذن السامع ويؤدي الغرض من الإنكار، فلم يقل "ولا تخطئ عليهم" أو "ولا تَغْلَط عليهم" أو "كف الأذى عنهم" بل قال "ولا تعذبهم" تسمية للأمور بمسمياتها الصادقة.

ج-نسبة الظلم والجرم الواقع على بني إسرائيل إلى فرعون (فأرسل معنا بني إسرائيل "ولا تعذبهم") والضمير في "تعذبهم" يعود على فرعون، فلم ينسب موسى عليه السلام تعذيب بني إسرائيل إلى بطانة فرعون.

**رابعاً: هل من القول اللين اتخاذ المدح مقدمة بين يدي الكلام؟**

وحتماً فإن المدح بما ليس في الممدوح أصلاً من الكذب الذي لا يسوغ بتأويل ولا غير تأويل، فالمدح بحق منهي عنه من حيث الأصل إلا استثناءً فما البال بالمدح الكاذب! هذا من إشباع الظالم بما لم يعط فهو كإلباسه ثوبي زور! وقد عد الهيتمي من الكبائر إطراء الفاسق بما لم تجر به العادة كأن يجعله مرة عالماً أو عادلاً ونقل عن الفوراني: أن من بالغ في مدح رجل، فقال فيه مالم تجر به العادة فهو كذب صريح وسفه ترد به الشهادة! ([[27]](#footnote-27)).

لنر موسى عليه السلام مع فرعون:

لقد عاش موسى عليه السلام في كنف فرعون، وتربى في قصره، ولما بحثوا عمن يرضعه ويكفله ووجدوا أم موسى أهداها هدايا فاخرة وأجرى عليها جراية من المال مقابل إرضاع موسى عليه السلام..

وكان لموسى بسبب قربه من فرعون جاه بين بني إسرائيل وبين الأقباط في آن واحد..

هذه النعم التي أنعم بها فرعون على موسى خاصة دون بني إسرائيل، لم يعرها موسى أي اهتمام في خطابه ولم يشر إليها لا من قريب ولا بعيد، ولم يجعلها مقدمة أو مدخلاً لخطابه الموجه إلى فرعون..

وإنما اكتفى موسى بنداء فرعون بلقب مثله، وبين له مباشرة بلا مقدمات أنه رسول من رب العالمين، وطلب قطع التعذيب عن قومه بني إسرائيل وأمره أن يرسل معه قومه. هكذا أمره الله تعالى أن يقول لفرعون: (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل).

امتن فرعون فعزف على وتر التذكير بموجب المدح والامتنان (قال ألم نربك فينا وليداً) (ولبثت فينا من عمرك سنين) (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) لنعمتنا عليك وتربيتنا لك، فاعتديت على رجل قبطي انتصاراً لرجل من بني اسرائيل، فجعل فرعون انتصار موسى لرجل من عشيرته كفراناً لنعمة فرعون لأنه يرى واجب موسى أنْ يعد نفسه من قوم فرعون فلا ينتصر لإسرائيلي([[28]](#footnote-28)).

فماذا كان جواب موسى على امتنان فرعون؟ هل شكره؟ هل أثنى عليه واعترف بفضله؟

لقد قلب موسى عليه السلام هذه المنة على فرعون بخطاب ملؤه استعلاء المؤمن (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل؟!) فنقض امتنان فرعون عليه بقلب النعمة نقمة، بتذكيره أن نعمة تربيته ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل ولو لم تستعبد يا فرعون بني إسرائيل لكفلني أهلي! ولو سلم بأن ذلك نعمة: فإن الإحسان إلى فرد من جماعة وتعبيد بقية الجماعة لا يعد إحساناً ولا منة، فمن أهين قومه فقد ذلّ([[29]](#footnote-29)).

إن مدح الفاسق مذموم في الشريعة من حيث الأصل([[30]](#footnote-30)) وقد رُوي في ذلك أخبار، فمما رُوي "إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش"([[31]](#footnote-31))، قال المناوي معللاً لسبب الغضب: (لأنه أُمِر بمجانبته وإبعاده، فمن مدحه فقد وصل ما أمر الله به أن يقطع وواد من حاد الله، **مع ما في مدحه من تغرير من لا يعرف حاله وتزكية من ليس لها بأهل** والإشعار باستحسان فسقه وإغرائه على إقامته. وظاهر الحديث يشمل ما لو مدحه بما فيه كسخاء وشجاعة ولعله غير مراد) إلى أن قال: (وهذا هو الداء العضال لأكثر العلماء والشعراء والقراء في زماننا، وإذا كان هذا حكم مدح الفاسق فكيف بمن يمدح الظالم ويركن إليه وقد قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار))([[32]](#footnote-32)).

**معالم القول اللين في اللقاءات الأخيرة:**

لما أصر فرعون وعاند وكابر انتقل موسى عليه السلام إلى نفس آخر في الخطاب، ومن معالم هذا النفس ما يلي:

1-التزام موسى عليه السلام بإطلاق لقب المثل: (وإني لأظنك "يا فرعون" مثبوراً)، فمع ارتفاع وتيرة الخطاب استمر موسى عليه السلام يلقب الملك بما جرى عليه عرف عصره "فرعون".

2-انتقل موسى عليه السلام من النقد والترهيب الموضوعي إلى الشخصنة في النقد والترهيب المباشر (وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً)، والثبور: الهلاك والخسران، ويأتي بمعنى الملعون، وبمعنى الممنوع من الخير، ويأتي بمعنى ناقص العقل والمخبول الذي لا عقل له([[33]](#footnote-33)). قال ابن عاشور: (وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه)([[34]](#footnote-34)). فالنقد هنا مربوط بالشخص، وهو نقد يتضمن تهديداً صريحاً غير مبطن لا يحتمل التأويل، قال ابن عاشور: (وجاء في جواب موسى- عليه السلام- لفرعون بمثل ما شافهه فرعون به من قوله: (إني لأظنك يا موسى مسحوراً) مقارعة له، وإظهاراً لكونه لا يخافه، وأنه يعامله معاملة المثل)([[35]](#footnote-35)). وإذا حملنا الثبور على نقصان العقل: فالثبور نقصان أصلي ملازم للعقل، بخلاف المسحور فنقصان طارئ غير ملازم في كل حال فقد يكون أثر السحر وقتياً يظهر في وقت دون آخر. وإذا حملنا الثبور على الهلاك فالمُهْلك أشد من المسحور، وإذا حملناه على الممنوع من الخير فهو أيضاً أشد من المسحور الذي قد يصيب الخير مرة ويُمْنع منه أخرى بخلاف المثبور الممنوع من الخير مطلقاً. وفي كل الأحوال لفظ موسى عليه السلام الموجه إلى فرعون أشد وأغلظ من لفظ فرعون له.

**القول اللين من موسى للسحرة:**

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فكان زمن عيسى عليه السلام تميزهم في الطب وكانت معجزة عيسى عليه السلام في هذا الباب يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم بعث في زمن الفصحاء البلغاء فأنزل الله عليه القرآن العظيم، وتحداهم أن يأتوا بمثله.

وأما في زمن موسى عليه السلام فكان ذائعاً بينهم علم "السحر"([[36]](#footnote-36))، وقد سخر السحرة خبرتهم العلمية لفرعون بالثمن (أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين)، فكانوا في حزب الظالم واصطفوا في صفه، وأرادوا أن يموهوا الباطل ليعلوا على الحق واتهموا موسى وهارون بالتهمة نفسها التي ألبسها إياهم فرعون لتثبيط الناس عن اتباعهما([[37]](#footnote-37))، وأضافوا عليها الدخول في النوايا: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)، فاتهموا موسى وهارون بأن مقصدهما الفخر والصيت والشهرة ليذهبا بعلم السحر عنهم وما كانوا يأكلون بسببه وما يتبع ذلك من الرياسة وتصدر الناس([[38]](#footnote-38)).

وبعد أن شرعوا في إلقاء سحرهم ازدادوا عدوناً وتزويقاً للباطل فقالوا (بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) أي: بعظمة فرعون([[39]](#footnote-39)). وهكذا العلماء المأجورين يعظمون السفلة بقدر الفتات الذي يغذيهم به.. و لم يكتفوا بأن يعظموه في أنفسهم حتى دعوا الناس إلى تعظيمه!

نصحهم موسى عليه السلام أول اللقاء بهم قبل بدء المناظرة فقال: (ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى)، وبعد أن أصروا وألقوا سحرهم وصفهم بالمفسدين (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) [يونس81]

**ومن معالم هذا القول من موسى عليه السلام:**

1-استخدم موسى عليه السلام في خطابه للسحرة العبارات التي تجرم تجريماً صريحاً ما هم بصدده، فقال لهم أولاً: (ويلكم) وسواء كان معنى الويل: التقبيح أو دركة من دركات النار([[40]](#footnote-40)) أو استعملت للتعجب بمعنى (أعجب منكم وأحذركم)([[41]](#footnote-41))، فعبارة (ويلكم) التي استخدمها موسى عليه السلام عبارة ترهيب ومخاشنة على المعاني جميعها.

ثم نهاهم ثانياً: نهياً صريحاً عن اختلاق الكذب: (لا تفتروا على الله كذباً) (أي: لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر)([[42]](#footnote-42)). قال ابن عاشور: (والافتراء الذي عناه موسى هو ما يخيلونه للناس من الشعوذة، ويقولون لهم: انظروا كيف تحرك الحبل فصار ثعبانا، ونحو ذلك من توجيه التخيلات بتمويه أنها حقائق، أو قولهم: ما نفعله تأييد من الله لنا، أو قولهم: أن موسى كاذب وساحر، أو قولهم: إن فرعون إلههم، أو آلهة فرعون آلهة. وقد كانت مقالات كفرهم أشتاتا)([[43]](#footnote-43)).

وحذرهم ثالثاً من مغبة الكذب بجملتين:

-"فيسحتكم بعذاب" يستأصلكم الله بعذاب. وهذا ترهيب مباشر أو ذاتي.

-"وقد خاب من افترى". وهذا ترهيب موضوعي.

قال الطاهر ابن عاشور: (والخطاب بقوله "ويلكم" يجوز أن يكون أراد به حقيقة الدعاء، فيكون غير جار على ما أمر به من إلانة القول لفرعون: 1-إما لأن الخطاب بذلك لم يكن مواجهاً به فرعون بل واجه به السحرة... 2-وإما لأنه لما رأى أن إلانة القول له غير نافعة، إذ لم يزل على تصميمه على الكفر، أغلظ القول زجرا له بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييدا لمطلق الأمر بإلانة القول.. 3-وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين أن سحرهم معجزة لهم من آلهتهم ومن فرعون ربهم الأعلى..، رأى واجباً عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع، لأن ذلك التغيير هو المناسب لمقام الرسالة)([[44]](#footnote-44)).

وقد مضى أن من صفات القول اللين الذي امتثله موسى عليه السلام مع فرعون أنه قول يجمع بين الترغيب والترهيب، وعليه فخطاب موسى عليه السلام هنا للسحرة لم يخرج عن حدود القول اللين؛ لكنه مال لأحد طرفيه وهو الترهيب.

لقد كان بوسع موسى عليه السلام أن يستخدم عبارات أخف وقعاً من هذه العبارات ["ويلكم"،"تفتروا"،"كذبا"،"يسحتكم"... إلخ] ، لكنها تربية من اصطنعه الله على عينه.. فليس في القرآن أشنع وصفاً من تمثيله الله بالكلب يلهث! وبالحمار يحمل أسفاراً!

ومنشأ الغلط ما فهمه البعض من أن القول اللين يعني القول الخاضع، أو القول الهادئ في جميع الأحوال.

ولا حظ أنّ القول اللين من موسى عليه السلام لهؤلاء السحرة فيه من الشدة ما ليس في خطابه لفرعون، ولعل السبب أن خطأ العالم الذي يعرف الحق ويحيد عنه خطأ مركب، فهو يعرف الحق لكنه الهوى، فَضلّ على علم([[45]](#footnote-45)).

2- بعد أن أصر السحرة على الاصطفاف مع فرعون، استخدم موسى معهم أسلوب التحقير والسخرية، وظهر ذلك في موطنين:

الأول: قبيل الشروع في المناظرة.. فقبل أن يلقوا سحرهم قال لهم موسى: (ألقوا ما أنتم ملقون)، وقوله "ما أنتم ملقون" (قصد به التعميم البدلي، أي شيء تلقونه، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم)([[46]](#footnote-46)).

الثاني: بعد الشروع في المناظرة.. فبعد أن ألقوا سحرهم قال لهم ساخراً: ( ما جئتم به السحر) لا يشاركه حق، فـــ(أل) للحصر، وهو يتضمن السخرية برد دعواهم عليهم، فإنهم في أول الأمر رموا موسى وأخاه هارون بالسحر (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) وفي سياق السورة نفسها: (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين، قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) فلما ألقوا سحرهم سخر بهم موسى عليه السلام بأن الذي جئتم به هو السحر لا الحق الذي جئت به وسماه فرعون وقومه سحراً!([[47]](#footnote-47)) هذا على تأويل (ما) في قوله "ما جئتم" بأنها موصولة.

وفي قراءة (آلسحر؟) بالاستفهام، وهذا غاية في التحقير والسخرية بهم. قال ابن عاشور معلقاً: (وهو مستعم في التحقير. والمعنى: أنه أمر هين يستطيعه ناس كثيرون)([[48]](#footnote-48)).

إن الأسلوب الساخر لمن يعرف الحق وهو يحيد عنه لثمن بخس هو الأسلوب الذي استخدمه موسى عليه السلام، وهو يحقق أمرين:

الأول: السعي في كسر نفسية الخصم.

الثاني: وضع حجاب بين الخصم وتأثر الناس به.

ولعل من هذا تلقيب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن هشام بـــــ"أبي جهل" وقد كان يلقب في قريش بـــــ"أبي الحكم" لما يرونه من رجاحة عقله فيهم. قال ابن القيم وهو يتحدث عن ذلك: (وكذلك تكنيته صلى الله عليه وسلم لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل، كنية مطابقة لوصفه ومعناه، وهو أحق الخلق بهذه الكنية، وكذلك تكنية الله عز وجل لعبد العزى بأبي لهب؛ لما كان مصيره إلى نار ذات لهب كانت هذه الكنية أليق به وأوفق، وهو بها أحق وأخلق)([[49]](#footnote-49)).

3-وبعد أن أصر السحرة على الاصطفاف مع فرعون: شخصن موسى النقد مرة وموضعه أخرى:

فأما موضع النقد الذاتي أو الشخصي: (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح "عمل المفسدين") فنعتهم "بالمفسدين" قال الطاهر ابن عاشور: (وإنما كان السحرة مفسدين لأن قصدهم تضليل عقول الناس ليكونوا مسخرين لهم ولا يعلموا أسباب الأشياء فيبقوا آلة فيما تأمرهم السحرة، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً. أما السحرة الذين خاطبهم موسى- عليه السلام- فإفسادهم أظهر لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم وترويج الشرك والضلالات)([[50]](#footnote-50)).

وأما موضع النقد الموضوعي: (ويحق الله الحق بكلماته ولو "كره" "المجرمون") فعرض بهم في أمرين:

-عرّض بأنهم يكرهون انتصار الحق ويسوءهم ذلك، والنفوس تأبى عادة أن توصف بمعارضة الحق، فهي ترى أنها مع الحق دوماً.. وعلى كل حال (وإذا قيل لهم تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء)

-عرّض بأنهم مجرمون. والتعريض هنا "المجرمون" يدخل فيه السحرة دخولاً أولياً لظاهر السياق، كما يدخل فيه فرعون وبقية الملأ([[51]](#footnote-51)).

ولم يخاطبهم موسى عليه السلام بذلك مباشرة؛ بل (أتى بالقضية في صورة قضية كلية، وهو يريد أنهم من جزئياتها بدون تصريح بذلك)([[52]](#footnote-52)).

هذا ما أنعم الله به في معالم القول اللين الذي امتثله موسى عليه السلام سواء مع فرعون في أول اللقاءات وآخرها، أو مع السحرة.

فهل كان هذا حكراً على موسى عليه السلام أم هو سنة محمد صلى الله عليه وسلم؟

لننظر معاً..

**القول اللين كما امتثله محمد صلى الله عليه وسلم**

لقد امتدح الله رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه وشهد له بحسن الخلق (وإنك لعلى خلق عظيم)، وأثنى على لينه صلى الله عليه وسلم وأن هذا اللين من رحمة الله (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)

أثنى الله على لينه صلى الله عليه وسلم وأمره بالغلظة في موطنها (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم)، وامتدح الله رسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة باتصافهم بالشدة في موطنها والرحمة في موطنها: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم). ولقنه تعالى أن يقول قولاً شديداً في مواطن تليق به (قل: أفغير الله تأمروني أعبد أيها "الجاهلون") فلقن نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينعت المشركين بالجهل ويواجههم بهذا الوصف!

هذا ينافي قواعد النقد التي يُحاكم الناس إليها ويستدل لها بالفهم الرائج عن القول اللين! وأنه قول هادئ في كل حال.

لندع الاستدلال بعموم الآيات، ولننظر في نماذج تطبيقية:

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: بعث صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و{يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} " متفق عليه([[53]](#footnote-53)).

**وحين نمعن النظر في هذه الرسالة منه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل نخرج بما يلي:**

1-لقّبه صلى الله عليه وسلم بلقب مثله "هرقل"، ونعته صلى الله عليه وسلم أيضاً بواقع حاله من أنه كبير في قومه في قوله صلى الله عليه وسلم " عظيم الروم". قال النووي في فوائد هذه المكاتبة منه صلى الله عليه وسلم: (التوقي في المكاتبة واستعمال الورع فيها فلا يفرط ولا يفرط؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم إلى "هرقل عظيم الروم" فلم يقل: ملك الروم؛ لأنه لا مُلْك له ولا لغيره إلا بحكم دين الإسلام ولا سلطان لأحد إلا لمن ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ولاه من أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرط وإنما ينفذ من تصرفات الكفار ما تنفذه الضرورة، ولم يقل: إلى هرقل فقط؛ بل أتى بنوع من الملاطفة، فقال: "عظيم الروم" أي: الذي يعظمونه ويقدمونه وقد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام، فقال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال تعالى: (فقولا له قولا لينا) وغير ذلك)أهــ([[54]](#footnote-54)).

-ومن الورع أنه صلى الله عليه وسلم لم يفرط في تمجيد هرقل، ولاحظ هذا في استخدامه صلى الله عليه وسلم ضمير المفرد لا الجمع في جميع الرسالة "أدعوك" "توليتَ" "فإن عليك"، ولم يقل: "أدعوكم/توليتم/فإن عليكم".

-ومن الورع أنه صلى الله عليه وسلم وصفه بالعظمة مقيداً بمن يعظمه وهم الروم، فلم يقل "إلى هرقل العظيم أو إلى العظيم هرقل" بل قيده بأنه عظيم في قومه الروم.

-ومن الورع أنه صلى الله عليه وسلم لم يتخذ مدح هرقل مقدمة بين يدي الرسالة، فلم يمدحه بحسناته على شعبه وأتباعه، أو كونه من أتباع عيسى عليه السلام، أو حسن جواره ووقوفه موقف المحايد في فترة مضت بين ما جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومه المشركين، أو عدم تعرضه إلى التجار المسلمين الذين يقدمون دياره.

2-جمع خطابه صلى الله عليه وسلم لهرقل بين الترغيب والترهيب في آن واحد، ويظهر الترغيب في ثلاثة مواطن:

-في قوله صلى الله عليه وسلم: "سلام على من اتبع الهدى"([[55]](#footnote-55)) وهذا وعد ضمني لهرقل بأنه إن اتبع الهدى حصلت له السلامة.

-في قوله صلى الله عليه وسلم "أسلم تسلم" وعد صريح بأنه إن أسلم حصلت له السلامة.

-في قوله صلى الله عليه وسلم "أسلم يؤتك الله أجرك مرتين" ترغيب له بأن من ثمرة إسلامه مضاعفة الأجر الأخروي.

ويظهر الترهيب في ثلاثة مواطن:

-"سلام على من اتبع الهدى"

-"أسلم تسلم"

فهذان الموطنان فيهما ترهيب غير صريح، فمنطوق الكلام ترغيب، ومفهومه ترهيب مبطن بأن من لم يتبع الهدى فلا سلام له، ومن لم يُسْلِمْ لا يَسْلَم!

والترهيب هنا ترهيب موضوعي يدخل هرقل في عمومه، وكما مرّ فإن الترهيب الموضوعي أخف على النفس وأقل إثارة لكبرياء النفس وطغيانها.

- "فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين" وهذا ترهيب مباشر لهرقل بتحمل آثم الأتباع، وهذا الترهيب يقابل ما مرّ من ترغيبه بالثواب المضاعف مرتين([[56]](#footnote-56)).

3-وضوح البيان، وخروج الدعوة إلى الإسلام مخرج الاستعلاء من غير تزلف ولا تذلل. وهذا ظاهر في العبارات المستخدمة

-"أسلم تسلم"/ "سلام على من اتبع الهدى"

ومن وضوح البيان وخروجه مخرج الاستعلاء: أن لغة الخطاب صريحة بأن ثمرة الهداية عائدة يا هرقل على شخصك وليس لمن يدعوك أو لأجل انتفاع شعبك، بل أسلم لأجل نفسك التي بين جنبيك.

-"يؤتك الله أجرك مرتين"/ "فإن توليت فإن عليك إثم.." كقوله تعالى: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها).

ومن وضوح البيان أنه صلى الله عليه وسلم استخدم الألفاظ الصادقة في الوصف، ولم يستعظ عنها بألفاظ أخف قرعاً للأذن..

لا حظ "فإن توليت"= ولم يقل :فإن لم تُسْلِم، أو فإن بدا لك رأي آخر.

ولاحظ "فإن عليك إثم" ولم يستبدله بلفظ رقراق..

ومن وضوح البيان وصراحته: أنه صلى الله عليه وسلم حمّل هرقل نفسه آثام الأتباع صراحة؛ ولم يلق ذلك على غيره من الأعوان، بل جعل التبعة كلها على الرأس.

ذكر النووي أن من فوائد الحديث: "البيان الواضح أن من كان سبباً لضلالة أو سبب منع من هداية كان آثماً لقوله صلى الله عليه وسلم "وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين" ومن هذا المعنى قول الله تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم)([[57]](#footnote-57)).

وهذا النفس الموجود في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مطرد في مكاتباته صلى الله عليه وسلم ويراجع في ذلك زاد المعاد 3/600 فقد عقد فصلاً في هديه صلى الله عليه وسلم في مكاتبات الملوك وغيرهم.

وإذا ما أردنا المقارنة بين لغة الخطاب التي سلكها موسى عليه السلام مع فرعون، وبين لغة الخطاب في مكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل نجد أنهما من مشكاة واحدة

فكلاهما لقب المدعو بلقب مثله "فرعون"="هرقل".

وكلاهما لم يفرط في التمجيد الزائف أو اتخذ المدح والثناء والتذكير بالمنن مقدمة بين يدي الخطاب.

وكلاهما استخدما لغة الطلب.

وكلاهما جمع في قوله بين الترغيب والترهيب في آن واحد.

وكلاهما استخدم عبارات صادقة في وصف الحال من غير محاولة لتخفيف الألفاظ.

من الناس من ينظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بعين واحدة وكأنه يرى أن الشدة في موطنها عار ينبغي أن يُبَرَّأ منها صلى الله عليه وسلم، وما علم أنه يسيء من حيث أراد الإحسان..

إن النبي صلى الله عليه سلم الذي لطف بالأعرابي الذي بال في المسجد والذي تكلم أثناء الصلاة، هو نفسه الذي قال لمعاذ رضي الله عنه لما أطال بالناس الصلاة "أفتان أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ" ثلاثاً

وهو نفسه الذي نزع خاتم الذهب من يد صحابي!

ثم طرحه أمامه على الأرض!

ثم لم يكتف صلى الله عليه وسلم بالفعل حتى أسمعه قولاً، فقال: "يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده"

فجمع صلى الله عليه وسلم في الإنكار عليه بين الفعل والقول..

حسناً.. هل كانت معالم القول اللين التي قُررت هنا حكراً على موسى عليه السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟!

فلنرجع للوراء.. لنرى سيرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

**القول اللين كما امتثله إبراهيم عليه السلام**

خليل الرحمن "إبراهيم" امتدحه الله تعالى بأنه حليم وأواه ومنيب، ومن حلمه عليه السلام صفحه عما يصدر من الناس إليه من زلات. لم يكن يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: (لأرجمنك) وهو يقول له: (سلام عليك سأستغفر لك ربي)([[58]](#footnote-58)).

ومن حلمه عليه السلام رحمته بالخلق، ولهذا جادل الملائكة في قوم لوط، حتى قيل له (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود).

ولقد كان لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في إبراهيم عليه السلام، ومما قصه الله علينا الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر وقومه.. قصه الله علينا في أكثر من موطن ومن تلك المواطن:

-سورة مريم: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا، قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا).

-سورة الأنعام: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين).

-سورة الصافات: (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون، أئفكا آلهة دون الله تريدون، فما ظنكم برب العالمين).

-سورة الزخرف: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون).

وثمة مواطن أخرى في القرآن..

وسأقتصر على ما دار بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه، دون الذي بينه عليه السلام وبين قومه.

وإذا تأملنا ذلك الحوار نخرج بما يلي:

1-التزم إبراهيم عليه السلام بنداء أبيه بنداء الأبوة "يا أبت" في كل مرة، وهذا من خطاب التوقير، كما أنه مؤثر نفسي على قبول الدعوة في أن الناصح مخلص للمنصوح لرابطة القرابة الوثيقة بينهما.

-وقد التزم إبراهيم عليه السلام الورع في خطابه والده: فلم يفرط في تمجيد والده؛ بل اقتصر على أقل قدر يكفي من مناداته بالأبوة. ولاحظ هذا أيضاً في استخدامه عليه السلام ضمير المفرد لا الجمع في جميع الرسالة "لم تعبد" "أراك وقومك" "أتتخذ أصناماً"، ولم يقل: "لم تعبدون/أراكم وقومكم/أتتخذون أصناما".

-كما أنه عليه السلام لم يتخذ المدح أو تذكر إنعام الوالد على الولد مطية بين يدي الخطاب؛ بل ولج إلى مقصود الرسالة عبر أقصر طريق.

2- جمع عليه السلام في خطابه لأبيه بين الترغيب والترهيب في آن واحد، ويظهر الترغيب في موطن واحد:

-"اتبعني أهدك صراطاً سوياً" فرغب والداه بأن ثمرة اتباعه له أن يهديه صراطاً مستقيماً.

ويظهر الترهيب في عدد من المواطن:

-"إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن"

-"فتكون للشيطان ولياً"

فحذر أباه من مغبة عدم اتباعه فيما يدعوه إليه، وأنه يتوقع (حرمانه من رحمة الله بأن يحل به عذاب من الله، فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم، ولكنهم يندمجون فيهم عن ضلال بمآل حالهم.

وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحل به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم؛ إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته من شأنه سعة الرحمة.

والولي: الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحدة وأمرهما جميع فكني بالولاية عن المقارنة في المصير.

والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يثبت أمرا فيما هو من تصرف الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان.

ومعنى: فتكون للشيطان وليا فتكون في اتباع الشيطان في العذاب)([[59]](#footnote-59)).

3-الوضوح في لغة الخطاب، واستخدام الألفاظ ذات الدلالة الصادقة:

-فمن الوضوح أنه أفصح بأن الابن تحصل على علم لا يعرفه الوالد "قد جاءني من العلم ما لم يأتك".

-وأوضح من ذلك تشنيع ما عليه الأب "لا تعبد الشيطان" مع أن الأب كان يعبد الأصنام، لكن إبراهيم عليه السلام (عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف: 23] ، ففي الكلام إيجاز لأن معناه: لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالا معلوماً. وهذا كقوله تعالى: (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) وتقدم في سورة النساء [117] . وفي هذا تبغيض لعبادة الأصنام، لأن في قرارة نفوس الناس بغض الشيطان والحذر من كيده)([[60]](#footnote-60)).

-ومن استخدامه للألفاظ الصادقة "يمسك عذاب".. "فتكون للشيطان ولياً"

-ولما أصر الأب وانحاز إلى قومه ارتفعت لغة الخطاب (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون، أئفكا آلهة دون الله تريدون)([[61]](#footnote-61)) لا حظ "أئفكا".

4-لغة الخطاب الطلب:

فلم يستجد والداه الهداية؛ لأن النفع لنفسه والغرض له لا لغيره، (من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها)، ومن ذلك قوله: "اتبعني" وهذا طلب فعل ، وقوله "لا تعبد الشيطان" طلب كفّ.

ولما أبى آزر طريق الهداية اعتزلهم إبراهيم عليه السلام وما يعبدون من دون الله، وأعلن البراءة منهم.

3-التنقص الضمني تارة والصريح تارة أخرى لما عليه الأب.

-فمن التنقص الضمني: تنقصه للأب في كونه يعبد آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً، ووجه الخطاب للأب مباشرة "لم تعبد" "ولا يغني عنك" ولم يستبدل ذلك بخطاب العموم أو المجهول، بل الضمير موجه للأب مباشرة. لكن هذا التنقص خففه خروجه بصيغة الاستفهام.

-وبعد الإصرار لجأ إلى الانتقاص: فوصف ما عليه الأب بأنه "ضلال" وهذا الضلال "مبين"، وهو خطاب مباشر للأب (إني أراك وقومك في ضلال مبين) فلم يستخدم خطاب التعريض، أو يستعمل خطاب العموم أو البناء للمجهول!

قال ابن عاشور: (ومباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بعض مجادلاته لأبيه بعد أن تقدم له بالدعوة بالرفق، كما حكى الله عنه في موضع آخر [وأورد آيات سورة مريم]، فلما رأى تصميمه على الكفر سلك معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعل بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض، فإن للنفوس مسالك ولمجال أنظارها ميادين متفاوتة، ولذلك قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) [النحل: 125] ، وقال له في موضع آخر: (واغلظ عليهم) [التوبة: 73] . فحكى الله تعالى عن إبراهيم في هذه الآية بعض مواقفه مع أبيه؛ وليس في ذلك ما تنافي البرور به؛ لأن المجاهرة بالحق دون سب ولا اعتداء لا ينافي البرور،..)([[62]](#footnote-62)).

وإذا ما أردنا المقارنة بين لغة الخطاب التي سلكها إبراهيم عليه السلام مع أبيه وبين لغة الخطاب في دعوة موسى عليه السلام لفرعون.. نوقن بأنهما صدرا من مشكاة واحدة !

فكلاهما لقب المدعو بلقب مثله "يا فرعون"="يا أبت".

وكلاهما لم يتخذ المدح والثناء والتذكير بالمنن مقدمة بين يدي الخطاب.

وكلاهما استخدما لغة الطلب.

وكلاهما جمع في قوله بين الترغيب والترهيب في آن واحد.

وكلاهما استخدم عبارات صادقة في وصف الحال.

وكلاهما حمل المدعو نفسه مغبة فعله.

إن لغة القرآن في دعوته للعموم تجمع بين الترغيب والترهيب معاً (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً)، وآيات الترغيب يعقبها أو يسبقها ترهيب دوماً، حتى أنبياءه خاطبهم الجليل بلغة الترهيب (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين).

وخاطب الله جل جلاله سيد الأولين والآخرين وأكرم الخلق عليه بخطاب الترهيب (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً)، وقال تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين).

وخاطب الله أمهات المؤمنين بخطاب الترغيب والترهيب في آن واحد: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريماً).

إن لغة القرآن في دعوة العباد للقيام بحقوق الخالق أو حقوق الخلق لغة طلب لا استجداء (من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) (أوفوا بالعقود) (إن الله يأمر العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

إن الخطاب القرآني وهو يأمر الناس بالخير أو ينهاهم عن الشر يبين أن نفع ذلك أو ضرره عائد على ذواتهم في المقام الأول (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها)، (من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين).

هذه هي لغة القرآن.. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن، وأمرنا الله أن نتأسى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن تطبيقات أنبياء الله تعالى للقول اللين، ومن الألفاظ التي لقنها الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام أن يقولها لفرعون.. يتبين لنا أن منشأ الغلط لهذا الفهم -والله أعلم- يعود إلى أمرين أو ثلاثة:

الأمر الأول: غياب مفهوم الحكمة والرفق، وتوهم أن الحكمة والرفق يعنيان الهدوء والسهولة في كل حال، قال سفيان الثوري رحمه الله لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟

قالوا: قل: يا أبا محمد.

قال: أن تضع الأمور من مواضعها، الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه([[63]](#footnote-63)).

قال الغزالي معلقاً: (وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق، كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى)([[64]](#footnote-64)).

وقد مضى أن الذي امتدح محمداً صلى الله عليه وسلم بلينه هو الذي أمره بالغلظة على من يستحقها، وأن الذي امتدح أصحاب محمدٍ بالرحمة فيما بينهم هو الذي أثنى عليهم بأنهم أشداء في موطن الشدة.

قال ابن تيمية: (شريعة التوراة تغلب عليها الشدة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا، كما قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، وقال في وصف أمته:(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)، وقال أيضاً: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين))أهـ([[65]](#footnote-65))ـ.

الأمر الثاني: الخلط بين القول اللين والقول الخاضع: قال ابن سعدي رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: (ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً): (لما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: {وقلن قولا معروفا} أي: غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بلين خاضع.

وتأمل كيف قال: {فلا تخضعن بالقول} ولم يقل: {فلا تلن بالقول} وذلك لأن المنهي عنه، القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع، هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاما لينا، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا، لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: {فبما رحمة من الله لنت لهم} وقال لموسى وهارون: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى})([[66]](#footnote-66)).

فنهى سبحانه عن القول الخاضع لأنه سبب لطمع الذين في قلوبهم مرض.

وصدق الله فإن الخاضع في قوله في مراجعة معاملة أو في مقابلة خصم مبطل أو في مفاوضة كثيراً ما يكون خضوعه سبباً لتعنت الذي في قلبه مرض وازدياد طمعه.

والفرق بين القول الخاضع والقول اللين:

أن القول الخاضع: هو القول المتذلل المتطامن الساكن. وهو ناتج عن (أثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة)([[67]](#footnote-67)).

والخضوع بمعنى الخشوع إلا أن الخضوع يغلب أن يكون في البدن، والخشوع في القلب أو البصر أو الصوت. قال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}، وقال تعالى: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ}، وقال تعالى: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ}، وقال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}([[68]](#footnote-68)). وأما القول اللين فقد مضى بيان معالمه وخلاصته: أنه قول لا خشونة فيه ولا استكانة.. هو قالب للكلام ناعم، ولا يعني نعومة القالب أن تكون مضامينه خاضعة بل كما عبر العلامة ابن سعدي فيها ترفع وقهر للخصم. والقول اللين كالخامة من الزرع، تنحني حيناً ترغب وتحبب مع استعلاء، وتقف شامخة حيناً آخر تُرّهب وتخاشن إذا اقتضى المقام مخاشنة.

الأمر الثالث: الاضطراب في تقرير جملة من أهل العلم بين تحرير القول اللين كمفهوم وبين التعليق على الجمل التي نطق بها موسى عليه السلام.

وكمثال على ذلك فإن الإمام الطاهر بن عاشور، فسر القول اللين كمفهوم بأنه: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله.

فمال رحمه الله في تفسيره إلى أحد طرفي اللين وهو الترغيب، وزاد معنى لا نجده في تطبيق موسى عليه السلام، فليس في جمل موسى عليه السلام التي قصها الله علينا أنه عليه السلام خاطب فرعون بما يفيد أن له سداد رأي يقبل به الحق!

في حين أنه إذا شرح الجمل التي قالها موسى عليه السلام لفرعون يقرر ضمناً أن من القول اللين الترهيب فمن ذلك أنه قال رحمه الله معلقاً على قوله تعالى (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى): (تعريض لإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه؛ ليبلغ الرسالة على أتم وجه قبل ظهور رأي فرعون في ذلك؛ حتى لا يجابهه بعد ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه. وهذا من أسلوب القول اللين الذي أمرهما الله به. وإطلاق السلام والعذاب دون تقييد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشارة والنذارة..، وهذا كله كلام الله الذي أمرهما بتبليغه إلى فرعون)([[69]](#footnote-69)).

ومن هذا أيضاً أنَّ جملة من المفسرين يحصر المراد بالقول اللين بما قصه الله تعالى في سورة النازعات (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) مع أن الله تعالى حكى لنا صراحة في موضعين أنه لقن موسى عليه السلام الجمل التي يواجه بها فرعون في أول لقاء، أحد هذين الموضعين في سورة طه.. فبعد أن أمره الله تعالى بالقول اللين في سياق سورة طه، لقنه جل جلاله العبارات التي يقولها في السياق نفسه: (فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى).

وفي سورة الشعراء: (فأتيا فرعون فقولا: إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل..).

وحصر القول اللين بما جاء في سورة النازعات مع إغفال ما جاء في السور الأخرى يحمل المرء على قصر مفهوم القول اللين على أحد طرفيه وهو الترغيب.

**فإن قيل:** قول الأنبياء عليهم السلام المحكي سابقاً -موسى مع فرعون وإبراهيم الخليل مع أبيه آزر ومحمد صلى الله عليه وسلم مع هرقل- كان من مؤمن إلى كافر، ولا يصح تنزيل ذلك على القول الموجه من مسلم إلى مسلم!

**فالجواب من وجهين:**

**الوجه الأول:** أن المقصود من البحث هو تحرير مفهوم القول اللين عموماً، والبحث في صحة الفهم الدارج والمنتشر بأنّ المراد بالقول اللين = هو القول المتذلل المتطامن الساكن.

**الوجه الثاني:** بأنه (ما زال المسلمون والعلماء والأئمة الأعلام يستدلون بالآيات العامة النازلة في الكفار على ما يفتون به المسلمين،.. وما زالوا يأخذون من تلك العموميات الحجج والدلالات على معتقداتهم وإيمانهم).

قال القرطبي عند قوله: (أجعلتم سقاية الحاج..): (فإن قيل: فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة. قيل له: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين. وقد قال عمر: "إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتوضع صحفة وترفع أخرى؛ ولكنا سمعنا قول الله تعالى:(أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)"[الأحقاف: 20]. وهذه الآية نص في الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة. فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع. وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام)([[70]](#footnote-70)).

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة، فقال: "ألا تصلون؟" فقال: يا رسول الله ‍ إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر، يضرب فخذه، ويقول {وكان الإنسان أكثر شيء جدلا}. فاستدل صلى الله عليه وسلم بآية نزلت في كافر على مسلم([[71]](#footnote-71)).

**وبعد:**

- فإن ما قُرّر في تحديد معالم القول اللين لا يلغي الذلة للمؤمنين في موطنها، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين). قال عطاء: للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته([[72]](#footnote-72)).

- وليس من لوازم ما قُرّر أن من لم تقو نفسه على القيام بأمر الله إلا بالقول الخاضع: أن سكوته أولى، فإن شيئاً أحسن من لا شيء، ومن عجز عن الواجب فلا أقل من قيامه بالممكن (فاتقوا الله ما استطعتم).

وهذا ما لم يكن القول الخاضع يتضمن تزكية لمن ليس أهلاً للتزكية أو يتضمن تغريراً بالمستمع..

هذا ما منّ الله به وتفضل..

ورحم الله امرئ أهدى إليّ عيباً وقعت فيه، أو كلمة زلّ بها القلم، أو ضلّ فيها الفهم.

وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

1. () ينظر: المفردات للراغب 752، أساس البلاغة 2/190، مقاييس اللغة 5/225، التحرير والتنوير 23/381وما بعدها [↑](#footnote-ref-1)
2. () فتح الباري 10/449، زاد المسير 3/160، نضرة النعيم 6/2157. وجاء في نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 8/3296: (..بين الرّفق واللّين عموما وخصوصا يتّفقان في مجال المعاملة، وينفرد اللّين بمجالي اللّسان والقلب، ومن ثمّ يكون اللّين أعمّ من الرّفق)أهــ. لكن هذا التفريق يرده حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري ح:6024 لما دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله" فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد قلت: وعليكم" والذي صدر من عائشة رضي الله عنها أمر لساني. [↑](#footnote-ref-2)
3. () الجامع لأحكام القرآن11/200 [↑](#footnote-ref-3)
4. () التحرير والتنوير 16/225. [↑](#footnote-ref-4)
5. () وممن ذكره غير المفسرين: ابن عقيل نقله عنه في شرح الكوكب المنير 588، والآداب الشرعية 3/584. [↑](#footnote-ref-5)
6. () مفاتيح الغيب 22/52، البحر المحيط 7/337 [↑](#footnote-ref-6)
7. () مفاتيح الغيب للرازي 22/53. [↑](#footnote-ref-7)
8. () الجامع لأحكام القرآن 11/200. [↑](#footnote-ref-8)
9. () ينظر: الجامع لأحكام القرآن 11/200. [↑](#footnote-ref-9)
10. () ينظر: المحرر الوجيز 4/45، البحر المحيط 7/336، تفسير البغوي 3/263. [↑](#footnote-ref-10)
11. () ينظر: النكت والعيون للماوردي 3/405. [↑](#footnote-ref-11)
12. () ينظر: تفسير الطبري 18/313، تفسير الثعلبي 6/245، المحرر الوجيز4/45، زاد المسير 3/160، الكشاف 3/65، مفاتيح الغيب 22/52-53، البحر المحيط 7/336، [↑](#footnote-ref-12)
13. () التحرير والتنوير 15/226 [↑](#footnote-ref-13)
14. () البداية والنهاية 2/192. [↑](#footnote-ref-14)
15. () التحرير والتنوير 9/37. [↑](#footnote-ref-15)
16. () فتح القدير 3/433. وانظر:الكشاف للزمخشري 3/66، أنوار التنزيل للبيضاوي 4/28. [↑](#footnote-ref-16)
17. () التحرير والتنوير 16/230-231. [↑](#footnote-ref-17)
18. () البحر المحيط7/336، وانظر: الكشاف للزمخشري 3/65، أسرار التنزيل للبيضاوي 4/28. [↑](#footnote-ref-18)
19. () جاء في الآداب الشرعية3/584: (قال-ابن عقيل- أيضا : لا تطلب من متجدد الرياسة أخلاقه معك حال العطلة فيرفضك ويؤذيك فتكون كالمعلم يتخلق مع من كان يعلمه بعد كبره كتخلقه معه حال كونه في الكتب , وذاك بمثابة من يطلب من السكران أخلاق الصحابي فإن للرياسة سكرا ولولا ذاك ما قال الله عز وجل : { فقولا له قولا لينا } . وبينه في قوله تعالى : { هل لك إلى أن تزكى } . فأخرجه مخرج السؤال لا الأمر لموضع تجبره وكذلك من كان له أو لسلفه ولاية ومنصب ودولة وقد أفضى به الدهر إلى العطلة لا يقتضي أو لا ينبغي معاملته بماضي الرياسة). [↑](#footnote-ref-19)
20. () التحرير والتنوير 9/38. [↑](#footnote-ref-20)
21. () محاسن التأويل للقاسمي 7/452. وانظر: جامع البيان للطبري 19/344. [↑](#footnote-ref-21)
22. ()محاسن التأويل للقاسمي 7/452 [↑](#footnote-ref-22)
23. () وحقيقة "اللين" يشمل الحالين أولاً وآخراً فإنّ القول اللين لا يعني القول الخاضع بل هو أوسع من هذا. [↑](#footnote-ref-23)
24. () الكشاف 3/308. وانظر أنوار التنزيل للبيضاوي 4/136. [↑](#footnote-ref-24)
25. () التحرير والتنوير 19/121. [↑](#footnote-ref-25)
26. () حلية الأولياء 5/311. [↑](#footnote-ref-26)
27. () ونقل أقوالاً في قبول الشهادة، الزواجر عن اقتراف الكبائر 2/355 . [↑](#footnote-ref-27)
28. () على أحد القولين في تفسيرها. ينظر: التحرير والتنوير 19/112، تفسير الطبري جامع البيان 19/340. [↑](#footnote-ref-28)
29. () ينظر: التحرير والتنوير 19/115، زاد المسير 3/337. [↑](#footnote-ref-29)
30. () استثنى البعض حال الضرورة، جاء في بريقة محمودية 4/23، يعدد شروط المدح: ((والثالث أن لا يكون الممدوح فاسقاً) لعل أنه إذا مدحه للخلاص عن ظلمه أو لينال حقه من جهته أو من جهة الغير بإعانته فلا يضر إذ الضرورة مبيحة للمحظورة).

    وكذلك الغزالي في الإحياء استثنى الضرورة والإكراه، ونص عبارته: (فأما الثناء -أي على الفاسق- فهو كذب صراح، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه في آفة الكذب، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه)اهــ. [↑](#footnote-ref-30)
31. () ضعف إسناده العراقي في تخريج الإحياء وابن حجر في الفتح. [↑](#footnote-ref-31)
32. () فيض القدير 1/441. [↑](#footnote-ref-32)
33. () ينظر: تفسير الطبري 17/569، المفردات 177، تفسير القرطبي 10/337، زاد المسير 3/58. [↑](#footnote-ref-33)
34. () التحرير والتنوير 15/227 [↑](#footnote-ref-34)
35. () التحرير والتنوير 15/228. [↑](#footnote-ref-35)
36. () ينظر: البداية والنهاية 2/99. [↑](#footnote-ref-36)
37. () الكشاف للزمخشري 3/72. [↑](#footnote-ref-37)
38. () تفسير ابن سعدي 508. [↑](#footnote-ref-38)
39. () ينظر: زاد المسير في علم التفسير 3/339. [↑](#footnote-ref-39)
40. () قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: 888): (قال الأصمعي: "ويل" قبح، وقد يستعمل على التحسر. وويس استصغار. وويح ترحم. ومن قال: ويل واد في جهنم، فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحق مقرا من النار، وثبت ذلك له)أهــ. [↑](#footnote-ref-40)
41. () التحرير والتنوير 16/249. [↑](#footnote-ref-41)
42. () الجامع لأحكام القرآن 11/214. [↑](#footnote-ref-42)
43. () التحرير والتنوير 16/249. [↑](#footnote-ref-43)
44. () التحرير والتنوير 16/248-249. [↑](#footnote-ref-44)
45. () جامع بيان العلم وفضله 2/982. [↑](#footnote-ref-45)
46. () التحرير والتنوير 11/254. [↑](#footnote-ref-46)
47. () تفسير البيضاوي أنوار التنزيل 3/121، الكشاف للزمخشري 2/362. [↑](#footnote-ref-47)
48. () التحرير والتنوير 11/256. [↑](#footnote-ref-48)
49. () زاد المعاد 2/309. [↑](#footnote-ref-49)
50. () التحرير والتنوير 11/257. وانظر: فتح القدير 2/529. [↑](#footnote-ref-50)
51. () ينظر: تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم 4/170، التحرير والتنوير 11/258، فتح القدير 2/529. [↑](#footnote-ref-51)
52. () التحرير والتنوير 11/258. [↑](#footnote-ref-52)
53. () البخاري ح: 4553، ومسلم ح: 74 - (1773). [↑](#footnote-ref-53)
54. () شرح النووي على مسلم 12/108. [↑](#footnote-ref-54)
55. () في فتاوى السبكي 1/69: حاول أن يتلمس الحكمة في كون (سلام على من اتبع الهدى) في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم جاءت في مطلع الرسالة، بينما في خطاب موسى لفرعون جاء في وسط الكلام. وأن السبب في تقديمها في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم أن هرقل أرسل إليه بعد البعثة ب21 سنة وليس لهرقل حق على النبي صلى الله عليه وسلم، بينما موسى دعا فرعون في أول بعثته كما أن لفرعون حق تربية موسى عليه السلام. هذا ملخص ما ذكره. [↑](#footnote-ref-55)
56. () قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى 10/726: (فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم أن عليه إثم الأريسيين وهم الأتباع وإن كان قد قيل: إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والأكرة كلفظ الطاء بالتركي فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك، ومعلوم أنه إذا تولى عن اتباع الرسول كان عليه مثل آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة. ومن هذا قوله تعالى {إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون} {لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين} {وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين} {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم} . فقوله: {ومن أوزار الذين يضلونهم} هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع وهي حاصلة من جهة الآمر ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال؛ فلهذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضه إلا أن كل بعض من هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل كما دلت عليه سائر النصوص مثل قوله:{من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة} . ومن هذا الباب قوله تعالى {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون} . فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب،..)أهـــ. [↑](#footnote-ref-56)
57. () شرح النووي على مسلم 12/109. [↑](#footnote-ref-57)
58. () تفسير ابن سعدي 353. [↑](#footnote-ref-58)
59. () التحرير والتنوير 16/117-118. [↑](#footnote-ref-59)
60. () التحرير والتنوير 16/116. [↑](#footnote-ref-60)
61. () التحرير والتنوير (19 / 138): (والأظهر أن إبراهيم ابتدأ بمحاجة أبيه في خاصتهما ثم انتقل إلى محاجة قومه، وأن هذه هي المحاجة الأولى في ملأ أبيه وقومه ألقى فيها دعوته في صورة سؤال استفسار غير إنكار استنزالا لطائر نفورهم، وأما قوله في الآية الأخرى إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله تريدون [الصافات 85، 86] فذلك مقام آخر له في قومه كان بعد الدعوة الأولى المحكية في سورة الصافات). [↑](#footnote-ref-61)
62. () التحرير والتنوير 7/314. [↑](#footnote-ref-62)
63. () إحياء علوم الدين 3/186. [↑](#footnote-ref-63)
64. () المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-64)
65. () الجواب الصحيح 5/79. [↑](#footnote-ref-65)
66. () تفسير ابن سعدي 664. [↑](#footnote-ref-66)
67. () ينظر: التحرير والتنوير 25/126. [↑](#footnote-ref-67)
68. () ينظر: حصول المأمول (88)، المفردات (283)، التحرير والتنوير 25/126-127. [↑](#footnote-ref-68)
69. () التحرير والتنوير 16/230-231. [↑](#footnote-ref-69)
70. () تفسير القرطبي 8/92. وللاستزادة ينظر [http://vb.tafsir.net/tafsir46/] [↑](#footnote-ref-70)
71. () جاء في موقع إسلام ويب [http://fatwa.islamweb.net]: (الصفات المتعلقة بخطاب الكفار ـ سواء كانوا أهل الكتاب, أم وثنيين, أم منافقين ـ في القرآن نوعان‎: النوع الأول : صفات ‏مكفرة - كتكذيب الرسل, وعبادة غير الله, وتعظيم الأوثان - فبهذه الصفات استحقوا وصف الكفر في ‏الدنيا, والخلود في النار في الآخرة، فالآيات الدالة على هذه الصفات لا يجوز إسقاطها على غير الكفار؛ لئلا يلزم تكفير ‏المسلمين, وقد قال النّبيّ صَلَى اللّه عليه وسَلّم: "‎إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ ‏بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا" متفق عليه. ‏وهذه طريقة الخوارج, كما قال ابن عمر فيهم في البخاري تعليقًا: "إنهم انطلقوا إلى آيات ‏نزلت ‏في الكفار فجعلوها ‏على المؤمنين‎" وكتطبيق لهذا النوع انظر الفتوى: 105713.‏

    والنوع الثاني: صفات غير مكفرة - كالغفلة, وقسوة القلب, والجدال بالباطل, واتباع الهوى, وقتل الصالحين - فهذه ‏الصفات ‏والأفعال لا تستوجب كفر صاحبها, لكن القرآن حذرنا منها؛ لأن المعاصي بريد الكفر -كما يقول علماؤنا- وقد قال نبينا ‏صلى الله عليه وسلم: ‎مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ ‏مِنْهُمْ. ‎رواه أحمد, وصححه الألباني.

    فإذا دلت آية أو بعض آية على ‏شيء من صفات الكفار من النوع الثاني جاز إسقاط الصفة ‏ـ دون إنزال وصف الكفر, أو حكمه ـ على من اتصف بها ‏من المسلمين، تحذيرًا له من مغبة ذلك‎). ثم ساق الأدلة على ذلك. [↑](#footnote-ref-71)
72. () مدارج السالكين 2/311. [↑](#footnote-ref-72)